الزمان – السنة الرابعة عشرة – العدد 4099 الاربعاء 24 من صفر 1434 هـ 18 من كانون الثاني (يناير) 2012م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vo1/14. UK. Issue 4099 Wednesday 18/1/2012

بعث العراق من البداية المريبة حتى النهاية الغريبة

طالب الحسن
الناصرية

الحلقة الأولى

سورية كانت الملاذ الآمن، عندما ضاقت علينا الأرض بما رحبت، فيها احتضن حي السيدة زينب الآلاف منا، وفيها تهيأت لي ظروف الكتابة لأطل على الناس من خلال فوهة القلم، تلك التي سددها صدام حسين وحزبه إلى صدورنا، فكانت فوهة القلم لا تقل خطورة عن فوهة البندقية، وبإمكان بضعة أسطر يسجلها قلم الرئيس أن تحرق العديد من المدن وتبيد الألوف من البشر.

جربت قلمي مع الطاغية وعصابته أولاً، لأرد الشر من حيث أتى. فكانت حلقات التعريض بأركان النظام التي نشرتُها في صحيفة (الموقف) ذات صدى كبير، ولاقت تشجيعاً ملفتاً للأنظار، دفعني لإصدار كتيب صغير في العام الأول من الألفية الثالثة، تلاه آخر في العام نفسه، ثم هممتُ لإصدار ثالث يختلف عنهما كماً وكيفاً، وبذلت جهداً في جمع مادته، حيث بحثتُ عن المعلومات والأخبار في مظانها، وضممتها إلى ما تختزنه ذاكرتي منذ أيام الإبعاد القسري إلى تكريت. وبعد مخاض عسير، وصبر كبير، وكفاح مرير من أجل تأمين ثمن طبع الكتاب، الذي كان صعباً عليّ للغاية، لمروري بظروف ضاغطة لا تسمح بتوفير أكثر من الضروري للحياة، وفي مطلع عام 2002 صدر الكتاب تحت عنوان: حكومة القرية... فصول من سلطة النازحين من ريف تكريت. وما أن خرج الكتاب إلى النور بعد تلك الولادة العسيرة حتى تلاقفته الأيدي، وكان الإقبال عليه مشهوداً، وتناولته أقلام الكتّاب بالتقريض، وعرضته الصحف تُحت عناوين بارزة، وتحـــــــــــــــمس بعض الأخوة لإيصاله إلى عقر دار الجلاد في بغداد، وما أن وصل حتى جاءتني تهديدات مخابراته تُنذر بالتصفية الجسدية، أو بخطف أحد أبنائي، فصبرت على مضض، وكان رصيدي في هذه المحنة إقبال الجمهور المتزايد على الكتاب، الأمر الذي خفف إلى حد ما من وطأة التهديد والوعيد. وتجمعت لدي قصـــــص عديدة مع قراء الكتاب في داخل الوطن وخارجه، ليس محلها أن تذكر الآن، وأتذكر جيداً أنّ الأخ الحبيب جعفر الحسيني قرأ الكتاب وأعطى رأيه فيه مشفوعاً بمقترح أن أهدي نسخة منه إلى الاستاذ فائز إسماعيل عضو الجبهة الوطنية في سورية، وأمين عام حزب الوحدويين الاشتراكيين، لأنه أول من بذر بذرة البعث في العراق، ليطلع على ثمار غرسه، وقد كنت مطلعاً، أنا أيضاً، على دور فائز إسماعيل في بدايات حزب البعث في العراق، من خلال إشارات غير وافية في الكتب التي تؤرخ لمسيرة هذا الحزب في العراق.

القائد المؤسس كذبة كبرى وتسويقها كان يجري لأغراض دعائية

العيسمي ليس من المؤسسين والأرسوزي غادر دمشق إلى الإعدادية المركزية

استمد مقترح السيد جعفر الحسيني صدقه من صدق صاحبه، وظل فكرة تراود ذهني حتى عام 2005، بعد أن طبع الكتاب طبعته الثالثة، فأخذت نسخة منه، ويممتُ وجهي شطر الجبهة الوطنية السورية في مقرها الكائن في حي أبي رمانة، والتقيت الاستاذ فائز إسماعيل وأهديته الكتاب، وكان ردّه سريعاً، أخرج من مكتبه كتاباً بعنوان: بدايات حزب البعث في العراق، ودوّن عليه الإهداء الآتي:

الأخ العزيز الأستاذ طالب الحسن
أقدم هذا الجهد المتواضع عن ذاكرتي في العراق الحبيب قبل ستين عاماً مع وافر تقديري واحترامي.
فائز إسماعيل
2005/5/22

في اليوم التالي عدت إليه ثانية، بعد أن أمضيت معظم الليلة الماضية في قراءة كتابه، وكان هو الآخر قد سهر مع كتابي إلى الهزيع الأخير من الليل. وفي هذا اللقاء قال لي: كتابك أعجبني وهو جهد كبير، وقد غيّر كثيراً من قناعاتي، وبالأخص عن أحمد حسن البكر، الذي لم ألتقِ به في سنوات إقامتي بالعراق، ولم يكن هو من البعثيين الأوائل، وعرفت عنه الكثير من كتابك.

قلتُ له: هذه شهادة أعتز بها. إن كتابك هو الآخر زاخر بالذكريات المهمة، التي لا غنى لكل باحث في تاريخ حزب البعث العراقي من الاطلاع عليها، وأنا أطالع الكتاب تكونت لدي نية مصحوبة بعزم أن أكتب عن تلك البدايات التي تناولتها في كتابك، ولكن بطريقة أخرى ورؤية مختلفة، فإذا كنت على استعداد أن تمنحني من وقتك، لاسيمت وأنك تذكر بأن لديك (الكثير من وثائق العراق: رسائل ـ صور فوتوغرافية حزبية ـ نشرات ـ مقالات ـ شعر. وطباعتها تتطلب (منك) تفرغاً لها، لاسيما وأن نشرها يتطلب كتاباً جديداً).

قال لي: أنا موافق لأعطيك من وقتي بشرط أن لا تكون كشفيق الكمالي، الذي كان لديه مثل هذه النية، ولكنه ذهب ولم يعد ثانية. ثم تذكر آثاره وأثنى عليه.

تحول مناضل

فقلت له: إن شفيقاً الذي تعرفه منذ الأربعينات هو غيره في الثمانينات، فقد تحول من كونه مناضل وشاعر مُجيد إلى غجري يحمل ربابته لينشد الشعر التافه في بلاط السلطان، أليس هو القائل مخاطباً الجلاد:

فما عودت قول الشعر في مدح وإنْ طُلبا
ولكني رأيتُ اللهَ في عينيك والعُربا

قال إسماعيل: إنّ شفيقاً ما كان كذلك، كان كتلة من النشاط والحيوية والعمل الجاد، ولكنني أشاطرك الرأي، قد لمست فيه هذا التحول في أمسية شعرية عقدها عام 1978 في دمشق أيام المفاوضات على الوحدة، ولم أره قبلها منذ عام 1950، اتخذتُ مكاناً مقابلاً له في مقدمة الصفوف مع عدد من مسؤولي الدولة والأدباء والمثقفين، كان يلقي قصائده وينظر إليّ، ربما كان يتذكر تلك الأيام الخوالي التي جمعتنا في عمل مشترك، كان في إحدى قصائده مدح فج لأحمد حسن البكر، ظل يخاطبه فيها بعبارة: يا أحمد الخير ! لقد تغيّر شفيق كثيراً كما تفضلت ! وبعد الفراغ من إلقاء قصائده، نزل من المنصة مسرعاً، واتجه حيثُ أجلس، وأخذني بالأحضان، والتف حولنا جمع من المسؤولين والأدباء والمثقفين وعشاق الشعر، والتفت شفيق إليهم قائلاً: هذا المجرم هو الذي أدخلني في حزب البعث !! وضحك الجميع، كان صادقاً فيما قال، نعم أنا الذي ضممته إلى حزب البعث العربي عام 1948 وأمامي أدى قسم العضوية.

وفي أحد اللقاءات مع الرئيس الراحل حافظ الأسد، أخبرته بما قاله شفيق أمام جمع من المسؤولين والأدباء الحاضرين، ضحك الأسد، وقال: والله قتلت الرجل ! سوف لا يبقى شفيق الكمالي طويلاً مع هؤلاء.

قدّم شفيق الكمالي من فروض الطاعة والاستسلام والخنوع ما لا حدود له، وأضفى على صدام صفات لا يصلح لها أبداً، واتسم شعره بالخروج على الدين، وبدأت حالة الانحراف تطغى على شعره، وفي الكويت عاتبه صديق له قائلاً: يا أبا يعرب أنتِ القائل في صدام:

رأيتُ اللهَ في عينيك والعُربا

أجاب الكمالي: حتى لا يقتلني

قال صديقه: أنت الآن بعيد عنه، وبإمكانك ألا تعود.

قال الكمالي: إنه يقتل أهلي جميعاً، وأغرورقت عيناه بالدموع.

وعاد الكمالي إلى بغداد ليكمل مشواره في مدح صدام والتزلف له، وهو في غاية الإنهيار، وبعد أن فرغت جعبته من الشعر الهابط الهزيل، ألقت أجهزة الأمن العراقية القبض أولاً على نجله الأكبر (يعرب) ـ الطالب في كلية العلوم بجامعة بغداد ـ أمام منزله، ولم يفلت شاعر البعث من بطش الجلاد، إذ وقع هو الآخر في حبائلها، وتجرع الألم غصةً بعد غصة في سجون حزبه، وتحققت نبوءة الراحل الأسد فيه، وللابن وأبيه في سجون الرعب قصة.

في صباح يوم 2005/5/23 اتفقت مع السيد فائز إسماعيل على إجراء مقابلات معه من أجل إنجاز مشروع هذا الكتاب، فتح الرجل قلبه، وزرته في بيته أكثر من مرة، ثم سجلت له بالصوت والصورة أحاديث طويلة، أظهر فيها صبره، وقدرته على التحمل، بعد أن أعطاني العزيز من وقته، وتعمقت علاقتي به.

ذكر مرة أنّ الباحثَين حنا بطاطو ومصطفى دندشلي اللذين كتبا عن حزب البعث، التقياه كل على انفراد، وقصا عليه قصة منع السلطة لهما من مقابلته، بذريعة أنه غير موجود حالياً، وعبرا له عن رغبتهما الملحة في اللقاء آنذاك، وأسفا على ما فاتهما من معلومات تهم البحثين، وأنحيا باللائمة على السلطة، واعتقد أن تلك الزيارات لو تمت لأغنت بحثيهما بشيء جديد، لأن الأستاذ فائز إسماعيل ما زال يحتفظ بذكريات طرية عن تلك الأيام المنصرمة، وبرغم تقدمه في السن (أطال الله عمره)، لا يزال يمتلك ذاكرة جيدة تسعفه بالمزيد من المعلومات التي لم يطلع عليها أحد.

في أول زياراتي له في بيته، وبعد تسجيل المقابلة بالصوت والصورة، خطوت خطوات باتجاه مكتبته التي تحتل مكاناً مهماً في صالة الاستقبال، وتسمرت رجلاي أمام المكتبة الغنية بنوادر الكتب، وقطع عليّ صمتي وأنا أنقل عيني من كتاب إلى آخر قائلاً: هذا جزء من مكتبتي، لي بيت في طرطوس كله مكتبة، وفيها إضافة إلى الكتب المتنوعة، الصحف والمجلات والرسائل والصور التذكارية، وقصاصات من صحف مرّ عليها أكثر من ستين عاماً.

وفي صالة الاستقبال وقريباً من المكتبة لمحتُ له صوراً مع الرئيس جمال عبد الناصر، وأخرياتٍ مع الرئيس الراحل حافظ الأسد، كان الرجل ولا يزال من شخصيات البلد السياسية المهمة، استوزر مرتين، تسلم خلالهما حقيبتي وزارة الشؤون البلدية والقروية في 1967/9/28 حتى 1970/2/21ت، في وزارات كل من الدكتور يوسف زعين والدكتور نور الدين الأتاسي، وتسلم حقيبة وزارة الدولة برئاسة الفريق حافظ الأسد في 1970/2/21ت حتى 1971/3/نيسان، وأعيد استيزاره في وزارة اللواء الركن عبد الرحمن خليفاوي وزيراً للدولة في 3 نيسان 1971 ولكنه استقال من الوزارة.

مؤتمر القمة العربية ببغداد

في مؤتمر القمة العربية المنعقد عام 1978 ببغداد / في أعقاب زيارة أنور السادات إلى القدس. أقام بعث العراق الدنيا ولم يقعدها وملأها ضجيجاً ضد السادات لأنه زار دولة الكيان الصهيوني، وأساء إلى كرامة العروبة، ومزّغ كبريائها بالوحل. وكان بعث العراق من أشد المتحمسين نفاقاً ودجلاً إلى طرد مصر من الجامعة العربية ومعاقبة السادات، وكان الرئيس الراحل حافظ الأسد من المبادرين إلى تلبية دعوة العراق إلى عقد القمة العربية، قمة التصدي لمصر وإفشال مخططات رئيسها، وربما هي الزيارة الأولى له للعراق، طردت مصر من جامعة الدول العربية، وانتقل مقر الجامعة إلى تونس.

وانتهز الراحل الأسد مدة وجوده في العراق ليخاطب البكر وصدام بعد قطيعة دامت عقداً من الزمان: إني جئتكم لإقامة علاقة مع العراق الشقيق تمتد ما بين (السلام عليكم... والوحدة الاندماجية) ولكم الاختيار. وتدور الأيام ويطرد البكر بعد عام ونصف من تاريخ انعقاد هذه القمة، ويقفز صدام بديلاً عنه إلى سدة الحكم، ثم يتحمس لاتهام سورية لمساندة مؤامرة (محمد عايش ـ عدنان حسين) ضده، وبذلك ينسف كل مبررات إقامة الوحدة مع سوريا الدولة التي تتآمر على نظامه على حد زعمه. ولم يمر سوى عامين فقط. وبقدر حماسه المفتعل لعاقبة مصر وتسمية رئيسها بـ(الخائن السادات). اندفع ثانية اندفاعاً أهوج لعودة مصر إلى جامعة الدول العربية، بعد أن أدخل العراق في كارثة الحرب مع إيران، ولم يكتفِ بذلك وإنما جعل زيارة السادات عملاً مبرراً بعد أن بالغ في وصفه بالعمل الخياني فيقول: إنّ المرحوم السادات لم يكن ليذهب إلى كامب ديفيد لولا سوء الحال الذي أوصلوه إليه أهل النفط ويأسه منهم، لقد تحدثت مرة في هذا الموضوع بألم مرير في اجتماع القيادة بعد سفر السادات، وانهمرت الدموع من عيني، وأنا أتحدث عن الوضع المزري الذي أوصلوا العرب إليه نتيجة الأنانية وعدم الشعور بالمسؤولية). في هذه المرة ينذرف ابن أوى الدموع والألم المرير يعصر قلبه ـ كما يدعي في محضر لقائه مع الرئيس المصري حسني مبارك ـ لا لأن السادات زار الكيان الصهيوني وأهان الأمة العربية، وطعنها في الصميم، وإنما لأن دول الخليج كانت تحت خط الشعور بالمسؤولية التي يتحلى بها صدام حسين، ولغلبة روح الأنانية التي تسيطر على حكامها، تركت أنور السادات يتخبط في قراراته، ولم تمد له يد العون لتنتشله من سقطته، فزيارة السادات للكيان الصهيوني التي فاجأت مصر والعالم في آن واحد، وهرولته إلى كامب ديفيد، ولهاثه وراء بيغن وكارتر، كلها لم تكن بسبب ضعف شخصية السادات المعقدة وعلاقاته المشبوهة. وإنما جاءت كنتيجة حتمية لموقف شيوخ الخليج منه، حسب تحليل صدام الآنف الذكر.

شبل العيسمي

من اليمين شفيق الكمالي طارق عزيز وصدام حسين (الزمان)

حدثني الأستاذ فائز إسماعيل(×)، أنه كان برفقة الرئيس الراحل حافظ الأسد في تلك الزيارة للعراق، والتقى فيها طارق عزيز وزير الخارجية، الذي أخبره بسعي قيادة حزبه لكتابة تاريخ البعث في العراق. وإنه ـ أي فائز إسماعيل ـ خير من يكتب عن بداياته في تلك المرحلة التي وضع فيها اللبنات الأولى للتأسيس. اهتم إسماعيل بالموضوع، وكتب عن تلك البدايات كتابه الذي أهداني نسخة منه، كان يأمل أن يُطبع الكتاب الذي أرسله إلى العراق بأكثر من مليون نسخة ـ على حد تعبيره ـ لأن سواه لا يمكنه الإحاطة بتلك البداية، ولكن الكتاب لم ير النور، وفوجئ بجواب إلياس فرح الذي التقاه فيما بعد، وهو يؤكد له أن الكتاب طُبع ووزع بشكل محدود على أعضاء القيادة فقط، ثم همس في أذنه قائلاً: إنّ السبب الذي حال دون طبعه بكميات أكبر، هو وجود الفصل الذي يتضمن نفياً قاطعاً للرأي السائد في العراق، عن وجود مؤسس بعينه لحزب البعث وتهميش دور ميشيل عفلق في التأسيس، حتى صار دوره كدور الآخرين الذين ساهموا في التأسيس. ولهذا السبب ظل كتاب (بدايات حزب البعث العربي في العراق) محدود التداول شأنه شأن أمثاله من الكتب الممنوعة في العراق. إنّ الأستاذ فائز إسماعيل، وهو أحد شهود مخاضات التأسيس لا يمكنه أن يخفي حقائق التاريخ ويزوّر حوادثه بما ينسجم مع عقلية بعث العراق القائمة على الكذب والتدليس، في الوقت الذي تملي عليه الأمانة التاريخية أن يكون موضوعياً وحيادياً، لاسيما وأنه يكتب بأدوات المؤرخ المنصف والباحث الموضوعي في حوادث مهمة لمرحلة خطيرة عاشها لحظة بلحظة.

إنّ فكرة القائد المؤسس التي أمعن بعث العراق في ترويجها وتسويقها بشكل مكثف، حتى صار نقضها من المحرمات التي لا يتساهل بشأنها، وهي في الحقيقة كذبة لا تقوم على أي أساس مطلقاً، وكان يرمي من وراء تكريسها إضفاء شيء من الحق التاريخي والامتداد الطبيعي على عمله الحزبي من خلال أحد المؤسسين في مقابل بعث سورية.

يقول حسن العلوي: (سألت صدام... لماذا لا تكون أنت أميناً عاماً بدلاً من ميشيل عفلق ؟

فأجاب: لا تكن كالسوريين الذين تنكروا له، ولا كالرفاق الذين عرضوا عليّ رغبة مماثلة.

قلت: أفضل ما فعله السوريون انهم تخلصوا منه.

قال: لكن علي صالح السعدي (يقصد الأمين القطري للحزب في العراق عام 1963) فعلها قبل السوريين وسقط.

قلت: الأمر معك مختلف.

قال: بقدر احترامنا للقيادة التاريخية سنكون في وضع أفضل لمواجهة السوريين) لكن حقائق التاريخ تشير إلى أن ميشيل عفلق ذاته الذي استقبل وصف (القائد المؤسس) راضياً، لم يكن منتمياً إلى أول تجمع للبعث العربي في سورية، وإنما أطلق على مجموعته التي أسسها بمؤازرة رفيقه صلاح البيطار بعد عودتهما من فرنسا اسم حركة الإحياء العربي، التي تزامن تأسيسها مع ولادة حزب البعث العربي لصاحبه زكي الأرسوزي عام 1940، أو تأخر تأسيسها قليلاً عن هذا التاريخ. وبعد أن أطلق عفلق اسم حزب البعث العربي على حركته. كان تعداد أعضاء حزبه عام 1943 (أقل من عشرة).

الفصل الأول: دور زكي الأرسوزي في تأسيس البعث

يقول زكي الأرسوزي: (ولكن البعث كحزب سياسي تشبثت أنا وتلاميذي بوضع أسسه في سنة 1934 ـ 1935 حين كنا بأنطاكية. إلا أننا تحولنا عن الاسم لندخل عصبة العمل القومي نظراً لاشتراكنا مع أعضاء هذا الحزب الأخير في المبدأ والغاية، ونظراً لما لهذا الحزب من انتشار في البلاد العربية (سوريا ولبنان وفلسطين والعراق بصورة خاصة) وإن كان التحول قد جرى على مضض منّا. كلمة بعث أشد وقعاً في التعبير عن الفكرة من عصبة العمل القومي. ومع ذلك كانت روح البعث تنتشر في النفوس انتشار العاصفة في برار خاوية. في أسبوع واحد وزعنا (18) ألف بطاقة انتساب في ربوع لواء اسكندرونة).

وظل حلم التأسيس يراوده، وهو يغادر مرغماً مرابع صباه في اسكندرونة، بعد سلخها من سورية بمؤامرة فرنسية تركية مشتركة، وبعد تطواف سريع في مدن سورية يغادرها إلى بغداد، ويذوق في كل ذلك مرارة التشرد. ومعاناة الهجرة، ليستقر به الحال أخيراً هو ومجموعة من تلامذته في بيت صغير في حي السبكي بدمشق. وهو بهذا الشأن يقول: (عندئذ عدت أنا وتلاميذي إلى البعث، إلى الفكرة التي كانت تراودنا في أنطاكية. كان عددنا يربو على الستين عضواً، أصدرنا مجلة بخط اليد تحت عنوان البعث العربي).

ولم ينشأ الأرسوزي أن يترك الموضوع الذي يسيطر على كل كيانه بدون توضيح. وبإصرار وعناد عجيبين يؤكد أنه مؤسس حزب البعث العربي، فيضيف قائلاً: (أما حزب البعث، فأنا الذي أسسته، لا ميشيل عفلق ولا صلاح البيطار، كما هو معروف عند الناس، فقد بدأت بتأسيسه عام 1934، ولكن عندما ظهرت عصبة العمل القومي، أثرت الانتساب إليها على متابعة عملي في تأسيس الحزب، وبقيت منقطعاً عن عملية التأسيس حتى انحلت العصبة، وعندئذ عدت إلى متابعة عملي فأسست حزباً جديداً سميته (البعث العربي). لقد كانت مادته الأولى (العرب أمة واحدة) والمادة الثانية (بلاد العرب وطن لا يتجزأ) وكانت المادة الرابعة تلخص وجهة نظر الحزب وهي (العروبة وجداننا القومي، وعنها تنبثق مثلنا العليا، وبالنسبة إليها نقدر قيمة الأشياء).

وكان الحزب مؤلفاً من عدد من تلاميذي أمثال: وهيب الغانم، وسامي الجندي وجمال الأتاسي وعلي حيدر وعبد الحليم قدور وغيرهم.

أما ميشيل عفلق فقد التحق بالحزب بعد أربع سنوات من تأسيسه، وهذا معروف عند الجميع).

فإذا كان زكي الأرسوزي هو أول من أوجد فكرة (البعث العربي) وتعامل معها في مقاطع كثيرة من حياته، ولم يبرح التمهيد لها وإطلاقها على مشاريعه ونشاطاته في أنطاكية، حتى أنه في عام 1937 وعندما أصاب التفكك عصبة العمل القومي، كان يتحرك من خلال (نادي العروبة). وقد أسس في هذا النادي مكتبة أطلق عليها اسم (البعث العربي).

وإذا كان هو أول من أسس حزباً في لواء الاسكندرونة بهذا الاسم كما مرّ بنا قبل قليل، وهو الذي أعاد تأسيس (حزب البعث العربي) في دمشق عام 1940، في الوقت الذي كان فيه ميشيل عفلق وصلاح البيطار يعملان من خلال، نصرة العراق وحركة الإحياء العربي، فلماذا بعث العراق على أن ميشيل عفلق هو (القائد المؤسس) ؟ ! وهل أن الدعوة إلى كتابة التاريخ من جديد التي يبشر بها ميشيل عفلق في أكثر من مجال، واستلمها من بعده تلميذه صدام حسين فألف كراساً بهذا الشأن، يريدان فيها القفز على التاريخ وتزوير حوادثه وطمس حقائقه ؟! وهل نطمئن لدعوة ميشيل وصنيعته صدام في إعادة كتابة التاريخ، وهما يسطوان معاً على التاريخ القريب فيمسخانه ويحيلانه إلى سيل من الأكاذيب المفتعلة. برغم أن شهود تلك الحوادث لا يزالون على قيد الحياة ؟!

تلامذة زكي الأرسوزي إن تلامذة زكي الأرسوزي الذين يصطلح بعضهم عليهم اسم الحواريين تطول قائمتهم في بعض الكتابات. فيذكر سليمان العيسى منهم: وهيب الغانم، سامي الجندي، جمال الأتاسي، عبد الخالق النقشبندي، عبد الحليم قدور، انطون مقدسي، علي حيدر، يحيى السوقي، برهان العابد، الإضافة إلينا نحن طلاب الثانوية الشباب: سليمان العيسى، مسعود الغانم، محمد الحسن، حسين مهنا، علي محسن زيفة، درويش الزوني، يوسف شقرا، صدقي إسماعيل، أدهم إسماعيل، فائز إسماعيل.. إلى آخر قائمة الشباب الصغار آنذاك، لأن منهم الآن من هو في خريف العمر وبعضهم الآخر قد فارق الحياة ورحل عن هذه الدنيا الفانية.

وأضاف لهم نافذ سويد في كتابه عن الأرسوزي كلاً من: محمد كساب ونظام ظاهر. وأضاف الطبيب وهيب الغانم إلى الأسماء السابقة كلاً من: صبحي زخور، وائل الخوري (وكان اسمه وليم، فتخلى عنه لأجنبيته وتحول إلى الاسم العربي) إبراهيم فوزي، محمد الكسار، وحنا غزال.

وفي كتابه القيم (نواطير الغرب) حشر الأستاذ حسن السعيد اسم شبلي العيسمي، وهو يتحدث عن الطلبة الاسكندرونيين الذين لعبوا دوراً أساسياً في تكوين البداية الأولى للبعث في العراق، وجعل من شبلي العيسمي واحداً من المتأثرين بأفكار زكي الأرسوزي، وأحال في هامش كتابه المذكور إلى كتاب (البدايات في ذاكرة فايز إسماعيل). وفي الحقيقة لم يكن شبلي العيسمي من الطلبة الاسكندرونيين، ولم يكن من ضمن المجموعة المؤسسة للبعث في العراق.

تلامذة زكي الأرسوزي.. شهادات للتاريخ

1 ـ وهيب الغانم يشارك في التأسيس

في كل ما قرأته عن زكي الأرسوزي وتلاميذه يأتي اسم وهيب الغانم في مقدمة أسماء من يطلق عليهم لفظ الحواريين. وهو الآخر عاصر إرهاصات تأسيس حزب البعث العربي في دمشق ويكتب عنها قائلاً: (لم يبق أمام زكي بعد الاحتلال التركي إلا مغادرة اللواء عام 1938، والذهاب إلى دمشق لمواصلة كفاحه).

وكانت قوى الاستعمار الفرنسي آنذاك، تراقب حركاته، وتحصي عليه أنفاسه، ولم تتركه حراً طليقاً، وضربت عليه حصاراً نفسياً تمثل في الملاحقة والاستفزاز، وآخر اقتصادياً تمثل في تجفيف مصادر رزقه وحرمانه من العمل، بما في ذلك منعه من التدريس في أية مدرسة حكومية أو خاصة.

مغادرة دمشق

وعندما اشتد به العوز ـ وهو أبي خجول ـ اضطر إلى مغادرة دمشق في عام 1939، والقبول بوظيفة مدرس في ثانوية بغداد المركزية.

إلا أنه ما كاد ينهي العام الدراسي حتى غادر العراق نهائياً بسبب التناقض الجذري بين تفكيره وبين قادة الحكم والزعماء السياسيين وعدم استعداده لأية مساومة في قناعاته، مما سبب له مرة أخرى مضايقات لا تحتمل وعاد إلى دمشق في صيف 1940. (وفي أواخر هذا العام دعا الأرسوزي مجموعة من تلامذته الجُدد ورفاقه السابقين في معركة اللواء ـ ما زلت أذكر منهم: صبحي زخور، وائل خوري (كان اسمه وليم، فتخلى عنه لأجنبيته وتحول إلى الاسم العربي) إبراهيم فوزي، عبد الحليم قدور، يحيى السوقي، محمد الكسار، حنا غزال، وهيب الغانم، وأعتذر من الصميم لمن نسيت ـ إلى اجتماع في بيت عبد الحليم قدور في حي السبكي، وأعلن في نهايته تأسيس حزب عربي باسم: حزب البعث).

في الكلام المتقدم شهادة واضحة لا تقبل الشك تضاف إلى ما صرح به الأرسوزي تؤكد بشكل قاطع، أن الأرسوزي قد أسس حزب البعث العربي في الأشهر الأخيرة من عام 1940.

2 ـ سامي الجندي يؤرخ ليوم التأسيس

أما سامي الجندي وهو أحد تلامذة زكي الأرسوزي الجدد، فيحدد اليوم والتاريخ الذي أُسس فيه حزب البعث العربي. ويتذكر أن أستاذه قَرَنَ يوم ميلاد الحزب بذكرى سلخ لواء اسكندرونة من سورية. فيقول:

(كان يلح على ضرورة تأسيس حزب، واجتمعنا يوم 29 تشرين الثاني 1940. كنا ستة في غرفة صغيرة يقطنها الأستاذ عبد الحليم قدور(الطالب يومها في معهد الحقوق). ألقى علينا محاضرة عن الديمقراطية والشيوعية والنازية، استمرت أربع ساعات متصلة تحرك فيها في الأعماق، كان يعيداً عن السطح كأنما لا وجود له على الأرض. حاراً عاطفياً، بدأ من ديكارت وانتهى بتشمبرلين: كان في ساعات الضيق غنياً. انتهى من الحديث إلى القول: (يوم ذكرى سلخ اللواء أحزن فأتفاءل، يحفزني الألم للعمل فأنهد إليه. أرى أن نؤسس حزباً (ونسميه البعث العربي). واقترح أن يقسم التنظيم إلى قسمين: سياسي وثقافي. وأقسمنا اليمين ببساطة دون أية شكليات كأننا نتم حديثاً، وخرجنا من البيت حوالي الحادية عشرة فوجدنا الجارة كئيبة السحنة. وفهمت ثاني يوم أنها أزعجها أن يجلس أربعة على السرير الهزيل. وأُلّي الأستاذ عبد الحليم قدور أمانة سر الفرع السياسي لأنه (ألمعنا وأقوانا حدساً سياسياً). ويحيى السوقي أمانة الفرع الثقافي لأنه: (أكثرنا جداً في قراءاته).

ونسي أن يتنبأ أنه أول من هوى منا بانهيار عصبي. زرته في مرضه، كان يهذي لم يذكرني، حتى إذا ضحكت، تذكر ضحكتي العالية.

كانت مسؤولياتي (كبيرة): تأمين الارتباط بين الفرعين، الإشراف على حلقات التجهيز الأولى وأمانة المالية. وجمعت بين انتسابات واشتراكات أربعاً وعشرين ليرة، فاشترينا كرسياً عالياً للأستاذ الأرسوزي وكراسي واطئة كلها من القش للأعضاء.

كان البيت صغيراً بائساً سكنه الأستاذ مع مجموعة من الطلاب اللاجئين من لواء اسكندرونة، أول قافلة من اللاجئين العرب.

3 ـ سليمان العيسى يروي ما حدث

وسليمان العيسى الشاعر العربي المعـــــــروف تلميذ آخر من تلامذة الأرسوزي، رافقه في رحلته المضنية من لـــــواء الاسكندرونة حتى ضمهما بيت واحد في حي الســـبكي بدمـــشق. وهو الآخـــر يكتب عن بدايات تأســـــيس حزب البعث العربي، فيقول: (كنا ذات مساء مكبين على دروسنا.. في بيتنا الصغير.. ستة أو سبعة من الطلاب معاً.. ريح الشتاء تصفر من حـــولنا، والبرد يتسلل إلينا من النوافذ لا يرده الزجاج المكسور، ولا ألواح الورق التي أحكمنا إلصـــاقها، كان الصمت يخـــيم على الحجرة الصغيرة، على الرؤوس الصغيرة، حين دخل علينا أستـــاذنا الأرسوزي ـ رحمه الله ـ تسبقه ابتسامته المشرقة، ومعه أكبر رفاقنا آنذاك: وهيب الغانم..

الرؤساء من اليسار حافظ الأسد ،صدام حسين واحمد حسن البكر في بغداد عام 1977 (الزمان)